رحلة مع العلم والعلماء

د. عبدالسلام حمود غالب

الألوكة
www.alukah.net
00201156800204

رحلة

مع العلم والعلماء

جمع وإعداد الشيخ

عبد السلام حمود الانسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الصادق الأمين.

فهذا بحث ضمنت فيه آداب طالب العلم ورحلة مع العلماء في طلبهم للعلم وازديادهم منه وحرصهم عليه حتى تزداد هممنا وان نتشبه بهم ويكونوا لنا قدوة في طلب العلم وقد جمعت هذه المواضيع من عدة أبحاث وكتب بتصرف واختصار لتعم الفائدة اسأل الله أن ينفع بها وان يستفيد منها من حمل على عاتقه طلب العلم والتفقه فيه.

من المواضيع التي ذكرتها:

١- من هو طالب العلم.

٢- فضل طلب العلم.

٣- آداب المتعلم وقسمته إلى:

- القسم الأول: آداب المتعلم مع نفسه.
- القسم الثاني: آداب المتعلم نحو شيخه.
- القسم الثالث: آداب المتعلم مع العلم.

٤- رحلة مع العلماء.

طَالبُ العِلم:

التّعريف:

- الطّالب: اسم فاعل من الطّلب، والطّلب لغةً: محاولة وجدان الشّيء وأخذه.

والعلم لغةً: نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين.

واصطلاحًا: هو معرفة الشّيء على ما هو به.

وقال صاحب التّعريفات: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.

وقال الحكماء: هو حصول صورة الشّيء في العقل.

«**فضل طالب العلم**»:

- لطالب العلم فضل كبير وميزة خاصّة عند الله تعالى والملائكة والخلائق، وقد وردت الأدلّة المستفيضة بذلك.

فعن أبي الدّرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله له طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّموات ومن في الأرض حتّى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنّما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « الدّنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاّ ذكر الله وما والاه أو عالمًا ومتعلّمًا ».

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتّى يرجع».

«**استحقاق طالب العلم للزّكاة**» **عند انقطاعه لطلب العلم ولا ما ل له**

- اتّفق الفقهاء على جواز إعطاء الزّكاة لطالب العلم، وقد صرّح بذلك الحنفيّة والشّافعيّة، والحنابلة، وهو ما يفهم من مذهب المالكيّة، إذ أنّهم يجوّزون إعطاء الزّكاة للصّحيح القادر على الكسب، ولو كان تركه التّكسّب اختيارًا على المشهور.

وذهب بعض الحنفيّة إلى جواز أخذ طالب العلم الزّكاة ولو كان غنيًّا إذا فرّغ نفسه لإفادة العلم واستفادته، لعجزه عن الكسب.

نقل ابن عابدين عن المبسوط قوله: لا يجوز دفع الزّكاة إلى من يملك نصابًا إلاّ إلى طالب العلم، والغازي، ومنقطع الحجّ.

قال ابن عابدين: والأوجه تقييده بالفقير ويكون طلب العلم مرخّصًا لجواز سؤاله من الزّكاة وغيرها وإن كان قادرًا على الكسب إذ بدونه لا يحلّ له السّؤال.

ومذهب الشّافعيّة والحنابلة أنّه تحلّ لطالب العلم الزّكاة إذا لم يمكن الجمع بين طلب العلم والتّكسّب بحيث لو أقبل على الكسب لانقطع عن التّحصيل.

قال النّوويّ: ولو قدر على كسب يليق بحاله إلاّ أنّه مشتغل بتحصيل بعض العلوم الشّرعيّة بحيث لو أقبل على الكسب لانقطع من التّحصيل حلّت له الزّكاة، لأنّ تحصيل العلم فرض كفاية، وأمّا من لا يتأتّى منه التّحصيل لا تحلّ له الزّكاة إذا قدر على الكسب وإن كان مقيمًا بالمدرسة.

وقال البهوتيّ: وإن تفرّغ قادرًا على التّكسّب للعلم الشّرعيّ – وإن لم يكن لازمًا له – وتعذّر الجمع بين العلم والتّكسّب أعطى من الزّكاة لحاجته.

وسئل ابن تيميّة عمّن ليس معه ما يشتري به كتبًا يشتغل فيها، فقال: يجوز أخذه من الزّكاة ما يحتاج إليه من كتب العلم الّتي لا بدّ لمصلحة دينه ودنياه منها.

قال البهوتيّ: ولعلّ ذلك غير خارج عن الأصناف، لأنّ ذلك من جملة ما يحتاجه طالب العلم فهو كنفقته.

وخصّ الفقهاء جواز إعطاء الزّكاة لطالب العلم الشّرعيّ فقط.

وصرّح الحنفيّة بجواز نقل الزّكاة من بلد إلى بلد آخر لطالب العلم.

آداب المتعلِّم

فالأدب عُدَّة المتعلم في طلبه للعلم، فبقدر أدبه بقدر ما يجود عليه أستاذه من علمه، وبقدر أدبه بقدر ما يستفيد من أقرانه في طلب العلم، وبقدر أدبه بقدر ما يفتح الله تعالى عليه في هذا وفي الفهم والاستيعاب إذ كان حُسْن الخلق مظنة التوفيق.

وسوف نقسِّم المراد بيانه من آداب طالب العلم في هذا الفصل إلى أقسام ثلاثة،

:القسم الأول: آداب المتعلِّم في نفسه.

القسم الثاني: آداب المتعلِّم مع شيخه.

القسم الثالث: آداب المتعلِّم في درسه.

القسم الأول: آداب المتعلِّم في نفسه

ونورد جمل مما نقلناه عن النووي رحمه الله في آداب العالم في نفسه،

١ ـ الإخلاص:

نذكر هنا كلام الغزّالي في تذكير المتعلم بالإخلاص ذكره في إحياء علوم الدين، قال رحمه الله (أن يكون قصد المتعلم في الحال: تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل: القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولايقصد به الرئاسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران) فإذا داخله شيء من فساد النية بادر بتصحيحه أثناء تعلّمه.

٢ ـ تنزيه النفس عن المعاصي الظاهرة والباطنة.

قال الله عزوجل (وذروا ظاهر الإثم وباطنه، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) الأنعام ١٢٠، وقال تعالى (ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن)

وقال النووي في المجموع (وينبغي أن يطهِّر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره، ففي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». وقالوا: تطييب القلب للعلم كتطييب الأرض للزراعة).

ونقل النووي في المجموع عن الشافعي رحمهما الله قوله (من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوِّره فعليه بترك الكلام فيما لايعنيه، واجتناب المعاصي، ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل، وفي رواية: فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبُغض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب).

والتنزه عن المعاصي يشتمل على ماظهر منها ومابطن، الكبائر منها والصغائر.

فالمعاصي الظاهرة: منها معاصي اللسان من الغيبة والنميمة والسبّ والكذب، ومنها معاصي السمع والبصر، ومعاصي الفرج، وأكل الحرام والغش والظلم والخداع والبغي وغيرها.

والمعاصي الباطنة والتي كثيرًا مايغفل عنها الإنسان منها الرياء والكِبْر والعُجب والحسد وسوء الظن وحب المعاصي وحب العصاة والظّلمة وغيرها. ومع التنزه عن المعاصي يكون التحلي بمحاسن الأخلاق من باب التخلية والتحلية.

٣ ـ التحليّ بمحاسن الأخلاق:

فقد قال النووي في المجموع في آداب المتعلم (وينبغي له أن يتواضع للعلم والمعلِّم، فبتواضعه يناله، وقد أُمرنا بالتواضع مُطلقا فهنا أولى، وقد قالوا: العلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي. وينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره ويأتمر بأمره كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح، وهذا أَوْلى لتفاوت مرتبتهما).

وإنما أردنا التنبيه على التواضع خاصة لأن الكبر والعُجب يضادان التعلم، وإذا ابتلي بهما طالب العلم انقطع وحُرِمَ العلم، فإن الكبر يجعل معلمه يرغب عن تعليمه، كما أن العُجب يجعل الطالب يستغني عن طلب المزيد من العلم، وكلاهما يمنعانه من قبول العلم ممن هو دونه في رتبةٍ أو سِنٍّ أو شرفٍ . فصار التواضع خير زاد له في طلب العلم.

قال البخاري رحمه الله (وقال مجاهد: لايتعلم العلم مُسْتَحْيٍ ولا مُستكبر). أما المستكبر فقد بيّنا سبب عدم تعلُّمِه، وأما المسْتَحي فالمقصود به الحياء المذموم الذي يمنع الطالب من السؤال عما

ينبغي السؤال عنه ليتعلم، ولهذا فقد أعقب البخاري قول مجاهد هذا بقولٍ لعائشة رضي الله عنها ليبين المراد بالحياء المذكور في قول مجاهد وأنه المذموم الذي يمنع من التعلم، فقال البخاري (وقالت عائشة رضي الله عنها: نِعْمَ النساءُ نساء الأنصار، لم يَمْنَعْهُن الحياءُ أن يتفقّهن في الدين).

٤ ـ طلب العلم في الصِّغر.

من أَجَلِّ نعمِ الله تعالى على عبدٍ أن يوفِّقه لطلب العلم في الصِّغر، لما للتعلم في الصِّغر من فوائد هامة، منها: ـ

أ ـ أن الصغير أفرغ قلبا ووقتا، فيرسخ في نفسه مايتلقاه من العلم، ومن هنا قيل: إن التعلم في الصِّغر كالنقش على الحجر، وإن التعلم في الكِبَر كالنقش على الماء. والصغير أقدر على الحفظ من الكبير.

ب ـ أن التفقه في الدين لابد له من طول المدة، أي التعلم لزمن طويل، نظرًا لكثرة العلوم الشرعية وتشعبها وطولها، فكان التعلم في الصِّغر أعون على الإلمام بهذه العلوم بتفصيلاتها، التي يعسر الإلمام بها إذا ما تعلَّم في الكِبَر. ولأهمية التعلم في الصِّغر لم يخل كتاب من الكتب التي تكلمت في موضوع العلم من التنبيه عليه، ومن هذا: ـ

أ ـ ما ذكره البخاري قال (قال عمر رضي الله عنه: تفقَّهوا قبل أن تَسودوا). قال البخاري: وبعد أن تسودوا، وقد تعلمَّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم في كِبَر سنِّهم. أهـ والمقصود بالسيادة في قول عمر رضي الله عنه: الرياسة والولاية.

ب ـ وقال الخطيب البغدادي (ينبغي لمن اتسع وقته، وأصَحَّ الله له جسمه، وحَبَّب إليه الخروج عن طبقة الجاهلين، وألقى في قلبه العزيمة على التفقه في الدين أن يغتنم المبادرة إلى ذلك خوفا من حدوث أمر يقطعه عنه، وتجدد حال تمنعه منه. ثم روى الخطيب بإسناده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه «اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»)

وتكلّم بكلام قريب من هذا كل من:

وكما ترى فإن جميع من كتبوا في موضوع العلم من العلماء قد نبّهوا على أهمية الشروع في التعلم في الصِّغر، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

٥ ـ تقليل العلائق بما في الدنيا:

فإن تقليل العلائق معين على:

أ ـ فراغ الوقت: وهو في غاية الأهمية لطالب العلم ويعينه على كثرة التحصيل.

ب ـ وفراغ القلب: وهو في غاية الأهمية لطالب العلم ويعينه على الفهم والحفظ.

جـ ـ والجهر بالحق: وهو من العمل بالعلم أيضا وبه يوفق اللهُ الطالبَ ويبارك في علمه.

٦ ـ الصبر:

ونؤكد على هذا، نظرا لشدة حاجة الطالب إلى الصبر لتحصيل العلم، فهو محتاج إلى الصبر على طول المدة اللازمة للتعلم، والصبر على ما يستغلق عليه فهمُه، والصبر على جفاء الأستاذ وشدته، والصبر على شظف العيش إن اضطر إليه ليتفرغ لطلب العلم، وكما ذكر في قصة موسى مع الخضر قال تعالى (قال إنك لن تستطيع معي صبرًا وكيف تصبر على مالم تُحِط به خُبرًا، قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا) الكهف، فلما طلب موسى عليه السلام التعلم، أرشده الخضر إلى أهم ما يلزم طالب العلم ألاوهو الصبر.

القسم الثاني: آداب المتعلم مع شيخه

وفيه مسائل وهى:

١ ـ إحسان اختيار الشيخ المعلِّم:

اعلم يا أخي المسلم أن شيخك الذي تأخذ عنه علم دينك هو دليلك إلى الجنة أو إلى النار،

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله (باب اختيار الفقهاء الذين يتعلم منهم: ينبغي للمتعلم أن يقصد من الفقهاء من اشتهر بالديانة، وعُرف بالستر والصيانة ـ إلى أن روى بإسناده ـ عن محمد بن سيرين قال «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذوه». فيكون قد رسم نفسه بآداب العلم من استعمال الصبر والحلم، والتواضع للطالبين، والرفق بالمتعلمين، ولين الجانب، ومداراة الصاحب، وقول الحق، والنصيحة للخلق، وغير ذلك من الأوصاف الحميدة والنعوت الجميلة. ـ إلى أن قال ـ قال مالك بن أنس: إن هذا العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول قال فلان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأساطين وأشار إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو أوتمن على مال لكان أمينا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ويقدم علينا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب فيُزدَحم على بابه)

٢ ـ التواضع للشيخ المعلِّم:

ذكرنا التواضع في آداب الطالب في نفسه، ونذكره هنا للتنبيه على أهمية تواضع الطالب لشيخه، قال البخاري (وقال مجاهد: لايتعلم العلم مُسْتَحْيٍ ولا مستكبر).

٣ ـ توقير الطالب للشيخ المعلم له واحترامه:

ويدل عليه مارواه البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال (مكثتُ سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجًا فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: ياأمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه فقال: تلك حفصة وعائشة، قال فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال فلا تفعل، ماظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبَّرتك به.) الحديث.

قال النووي رحمه الله في المجموع (وينبغي أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على أكثر طبقته فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ماسمعه منه في ذهنه، وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدَّق بشيء وقال اللهم استر عيب معلمي عني ولاتذهب بركة علمه مني، وقال الشافعي رحمه الله: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحا رفيقا هيبة له لئلا يسمع وقعها، وقال الربيع: والله مااجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليّ هيبة له، وقال حمدان بن الأصفهاني: كنت عند شريك رحمه الله فأتاه بعض أولاد المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه وأقبل علينا، ثم عاد لمثل ذلك فقال: أتستخف بأولاد الخلفاء، فقال شريك: لا ولكن العلم أجلّ عند الله تعالى من أن أضعه، فجثا على ركبتيه، قال شريك: هكذا يُطلب العلم.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولاتشيرن عنده بيدك، ولا تعمدن بعينك غيره، ولاتقولن قال فلان خلاف قوله، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تسار في مجلسه، ولاتأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذ كسل، ولاتشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شئ)

ومن توقير العالم واحترامه:

أ ـ أن تخفض صوتك في الحديث معه، واستدل بعض العلماء لهذا بقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) الحجرات. قال القرطبي في تفسيره (وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتًا كحرمته حيًا، وكلامه المأثور بعد موته في الرِّفعة مثالُ كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرِيء كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولايَعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به)

ب ـ ومن توقير الشيخ أن يجلس المتعلم بين يديه قعدة المتعلمين لا قعدة المعلِّمين فلا يمدّ رجله ولا يشيح بيده ولايتكيء ولايضحك ولايعبث.

جـ ـ ومن توقير الشيخ ألا يسبقه المتعلم بإجابة سؤال سائل، ونحو ذلك.

٤ ـ الصبر على الشيخ وتحمله.

قال النووي رحمه الله في المجموع ـ في آداب المتعلم ـ (وينبغي أن يصبر على جفوة شيخه وسوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله، ويتأول لأفعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق، وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار وأظهر أن الذنب له والعتب عليه فذلك أنفع له دينا ودنيا وأبقى لقلب شيخه، وقد قالوا من لم يصبر على ذل التعلم بقي عمره في عماية الجهل ومن صبر عليه آل أمره إلى عِزّ الآخرة والدنيا، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالبا فعززت مطلوبًا).

٥ ـ التأدب بآداب الجلوس بين يدي الشيخ في مجلس العلم.

قال النووي رحمه الله (وألا يدخل عليه بغير إذن وإذا دخل جماعة قدموا أفضلهم وأسنهم. وأن يدخل كامل الهيبة فارغ القلب من الشواغل متطهرًا متنظفا بسواك وقص شارب وظفر وإزالة كريه رائحة. ويسلم على الحاضرين كلهم بصوت يسمعهم إسماعا محققا: ويخص الشيخ بزيادة إكرام وكذلك يسلم إذا انصرف، ففي الحديث الأمر بذلك ولا التفات إلى من أنكره، وقد أوضحت هذه المسألة في كتاب الأذكار. ولا يتخطى رقاب الناس ويجلس حيث انتهى به المجلس إلا أن يصرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدم والتخطي أو يعلم من حالهم إيثار ذلك، ولايقيم أحدًا من مجلسه فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه إلا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين بأن يقرب من الشيخ ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها، ولايجلس وسط الحلقة إلا لضرورة، ولابين صاحبين إلا

برضاهما، وإذا فسح له قعد وضَمَّ نفسه، ويحرص على القرب من الشيخ ليفهم كلامه فهما كاملا بلا مشقة وهذا بشرط ألا يرتفع في المجلس على أفضل منه. ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس فإن تأدبه معهم تأدب مع الشيخ واحترام لمجلسه.

ويقعد قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين.

ولا يرفع صوته رفعا بليغا من غير حاجة ولايضحك ولايكثر الكلام بلا حاجة، ولايعبث بيديه ولا غيرها ولايلتفت بلا حاجة بل يُقبل على الشيخ مصغيا إليه. ولا يسبقه إلى شرح مسئلة أو جواب سؤال إلا أن يعلم من حال الشيخ إيثار ذلك ليستدل به على فضيلة المتعلم.

ولا يقرأ عليه عند شغل قلب الشيخ ومَلَله وغمه ونعاسه واستيفازه ونحو ذلك مما يشق عليه أو يمنعه استيفاء الشرح ولايسئله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعلم من حاله أنه لايكرهه ولا يلح في السؤال إلحاحا مضجرًا. ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه ويتلطف في سؤاله. ويحسن خطابه. ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه بل يستوضحه أكمل استيضاح فمن رَقَّ وجهه رَقَّ علمه، ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال.وإذا قال له الشيخ أفهمت فلا يقل نعم حتى يتضح له المقصود إيضاحا جليا لئلا يكذب ويفوته الفهم، ولايستحي من قوله لم أفهم لأن استثباته يحصل له مصالح عاجلة وآجلة، فمن العاجلة حفظه المسئلة وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فهم مالم يكن فهمه، ومنها اعتقاد الشيخ اعتناءه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه، ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائما واعتياده هذه الطريقة المرضية والأخلاق فهذه إشارة إلى أهم ما يلزم طالب العلم من آداب مع شيخه، وليحرص الطالب على أن يتأدب بأدب شيخه من الهَدْى الصالح والسمت الحسن، ليحصِّل العلم والأدب معا من شيخه، وقد حكى بعض علماء السلف أنه كان يتردد على بعض الشيوخ أثناء طلبه للعلم وهو يعلم ما عندهم من العلم ولم يكن يتردد عليهم إلا ليتعلم منهم الأدب والخشوع والسمت الحسن، وهذا كان دأب السلف الصالح رحمهم الله.

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله (روى أبو الحسين بن المنادي بسنده إلى الحسين بن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول «كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسْن الأدب وحُسْن السَّمْت» أهـ)

القسم الثالث: آداب المتعلم في دَرْسِه

تحصيل الطالب للعلم الشرعي وبلوغه منزلة مَرْضية فيه له ست دعائم، لا تغني إحداها عن غيرها، وهي:

١ ـ التفرغ لطلب العلم، مع طول مدة الطلب، فإن لم يفعل فحظه من العلم قليل. فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك

٢ ـ الصبر، فإذا تيسر له التفرغ ولم يكن له صبر فلن يُحَصِّل العلم.

٣ ـ الاشتغال بالأهم من العلوم، فإذا تيسر له التفرغ وصبر على التعلم، ثم اشتغل بعلوم غير أساسية كالتبحر في علوم التاريخ مع إهماله للعلوم الأساسية وهي التفسير والحديث والفقه، فهذا قد أهدر عمره.

٤ ـ إحسان اختيار مصدر العلم: فيختار من الشيوخ أفضلهم علمًا وديناً، ومن الكتب ما أثنى عليه الثقات. فإنه إذا تفرغ وصَبَر واشتغل بالأهم ثم أساء اختيار مصدر العلم فقد يضل ويزيغ وقد يذهب شطر عمره قبل أن يهتدي للصواب.

٥ ـ التدرج في العلم: بأن يأخذ العلم شيئا فشيئا، ولا يأخذه دفعة واحدة فيثقل عليه فينقطع عنه، وهذا هو التّدرج في الكَمّ. كذلك لا يدرس علما حتى يدرس مقدماته أو يدرس العلم الممهِّد له، وهذا هو التدرج في الكيف.

٦ ـ الحفظ: فإن قَدْر العالم بقدر محفوظاته، ولا وزن لمن إذا احترقت كتبه ذهب علمه. والحفظ يعتمد على النباهة والذكاء والسِّن، فإذا تيسرت لرجل الدعائم الخمس السابقة وأهدر الحفظ ـ خاصة مع قابليته له ـ فهو مغبون.

٧- الهمة العلية في الطلب ومما يزيد في الهمة تتبع حال العلماء مع العلم وهمتهم العالية

رابعا رحلة مع العلماء وحالهم مع العلم وطلبه وتناول المواضيع التالية:

١- حال الرسول صلى الله عليه وسلم وحثه على العلم

٢- حال الصحابة

٣- حال السلف

وما ورد عن الرسول في الحث على طلب العلم

جاءَ الأمرُ القرآني، لتأكيد القضيّة والحث على طلب المزيد من العلم، فقال الله -تعالى-: (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) [طه. قال ابن القيم -رحمه الله-: ((وكفى بهذا شرفًا للعلم.، أن أمرَ نبيَّه أن يسأله المزيدَ منه)) اهـ.

وقال ابن كثير في ((تفسيره)) ((أي: زدني منك علمًا، قال ابنُ عُيينة -رحمه الله-: ولم يزل - صلى الله عليه وسلم - في زيادة حتَّى توفَّاه الله -عز وجل-)) اهـ.

وقد قيل: ما أمرَ اللهُ رسولَه بطلبِ الزيادة في شيءٍ إلا في العلم.

خبر نبيّ الله موسى - صلى الله عليه وسلم - في طلب الزيادة منه والعالم كلما ازداد علمًا. ازداد معرفة بفضل العلم ومنزلته ومكانته، وبمقدار ما فاته منه ويفوت= فتاقَت نفسُه -حينئذٍ- إلى المزيد منه، ولو لقي في ذلك الألاقي.

قال أبو العبَّاس القرطبي في تفسيره: ((وفيه من الفقه: رِحْلة العالِم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحِب، واغتنام لقاء الفُضَلاء والعلماء، وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأب السَّلف الصالح، وبسبب ذلك وصلَ المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السَّعي الناجح، فَرَسخت في العلوم لهم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذِّكر والأجر أفضلُ الأقسام)) اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في ((فتح الباري)): ((وموسى -عليه الصلاة والسلام- لم يمنعه بلوغه من السِّيادة المحلّ الأعلى من طلب العلم وركوب البحر لأجله... و[فيه -أي الحديث-]:

ركوب البحر في طلب العلم، بل في طلب الاستكثار منه)) اهـ.

وذكر عن ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- قال: لو كان أحدٌ يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى -على نبينا وعليه السلام- لما قال: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) [الكهف/ ٦٦].

حال الصحابة في طلب العلم

لحظَ الصحابةُ -رضي الله عنهم- ماكان عليه قدوتهم - صلى الله عليه وسلم - من حِرْصٍ على العلم، فاقتفوا أثره، وضربوا أمثلة نادرة في الحرص عليه والتفاني من أجله.

فهذا عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- كان إذا تلى قولَه تعالى: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) قال: ((اللهم زِدْني عِلْمًا وإيمانًا ويقينًا)). وقد بلغ -رضي الله عنه- من شِدَّة اجتهاده وطلبه أن قال: ((والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلمَ مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبتُ إليه)).

وهذا أبو هريرة -رضي الله عنه- حافظ الصحابة يصفه - صلى الله عليه وسلم - بالحرص على العلم، فقد عَقَد البخاريُّ في ((صحيحه)): (بابٌ الحرصُ على الحديث) وذكر فيه حديثَ أبي هريرة -رضي الله عنه- وسؤاله النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أسْعد الناس بشفاعته؟ وقوله له: ((لقد ظننتُ يا أبا هريرةَ ألا يسألني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلَ منكَ، لِمَا رأيتُ من حِرْصِكَ على الحديثِ...)).

وهذا جابر بن عبدالله الأنصاري -رضي الله عنهما- يرحل من المدينة النبوية إلى مصر -مَسِيرة شهر على البعير- من أجل سماع حديثٍ واحد، خاف أن يموتَ ولم يَسْمَعْه.

وأخرج الدارمي بسندٍ صحيح عن عبدالله بن بريدة: ((أن رجلًا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رحلَ إلى فَضَالَة بن عُبيد وهو بمصر، فقدمَ عليه، فقال: أما إني لم آتِكَ زائرًا، ولكن سمعتُ أنا وأنتَ حديثًا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجوتُ أن يكون عندك منه علم...

ما جاء عن السَّلف في طلب العلم:

وهكذا كان ذلك الجيل الفريد قدوة لمن بعدهم، في عكوفهم على العلم، وطلبهم للاستزادة منه، فاحتذوا حذوهم، واقتفوا أثرهم، وشواهد ذلك ماثلة:

فهؤلاء تلاميذ ابن مسعود -رضي الله عنه- في الكوفة -علقمة والأسود وغيرهم- كانوا إذا سمعوا الحديث والعلم من شيخهم، لم يشف ذلك مافي صدورهم من النهمة، فيرحلون إلى المدينة طَلَبًا للعلوِّ وزيادة في التثبت، وإمعانًا في الطلب والتلقي من أفواه العلماء.

قال يحيى بن سعيد القطان: ما رأيتُ أحفظَ منه (أي: سفيان الثوري) كنتُ إلا سألته عن مسألةٍ أو عن حديثٍ ليس عنده، اشتدَّ عليه.

فلم يقف العلماء في طلبهم عند حدٍّ محدود، بل استوعبوا قدر الاستطاعة والطاقة، فضربوا بذلك أعجبَ الأمثلة، وأغربَ السِّيَر.

قال الأعمش: كان مجاهد لا يسمع بأُعجوبة إلا ذهب لينظر إليها! ذهب إلى حَضْرَمَوْت ليرى بئر برهوت، وهذا الإمام الدارقطني -رحمه الله- وهو من هو تضلُّعًا في علوم الحديث والفقه والقراءات، إلا أنه كان حُفَظَةً للأخبار والنوادر والحكايات.

قال الأزهري: كان الدارقطني ذكيًّا، إذا ذكر شيئًا من العلم (أيّ نوع كان) وجد عنده منه نصيب وافِر، لقد حدّثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع الدارقطني دعوةً، فجرى ذِكْر الأَكَلَة، فاندفعَ الدارقطني يورد نوادر الأَكَلَة حتى قطع أكثر ليلته بذلك. وقال الإمام محمد بن عبدالباقي الأنصاري عن نفسه: ((حفظتُ القرآن ولي سبع سنين، وما من علمٍ في عالم الله إلا وقد نظرتُ فيه، وحصَّلتُ منه بعضه أو كله)).

ولما أُسِر في أيدي الروم قيَّدوه، وجعلوا الغل في عنقه، وأرادوا منه أن ينطق بكلمة الكفر فلم ينطق بها وإن تَعْجَب فَعَجَبٌ ما وجدته في تراجم بعض العلماء، وما ذُكر من سَعَة اطلاعهم وتنوُّع معارفهم، بل تصريح جماعةٍ منهم بمعرفتهم لعلومٍ لا يعرفها أهلُ عصرهم، بل لا يعرفون أسماءها

١- كان ابن الخشَّاب النحوي الحنبلي ت (٥٦٧هـ) يقول: إني متقنٌ في ثمانية علوم، ما يسألني أحدٌ عن علم منها، ولا أجد لها أهلًا.

٢- وكان أبو البقاء السُّبْكي ت (٧٧٧هـ) يقول: أعرف عشرين علمًا، لم يسألني عنها بالقاهرة أحد!!.

حال العلماء مع العلم في ساعة الاحتضار:

ساعة الاحتضار لا يمكن لأحدٍ أن يصفَ حقيقتها أو يصلَ إلى كُنْهها، لكن الكلُّ يعلم أنها ساعة رهيبة ولحظةً مُذهِلة، إنها ساعة الانتقال والتحول من الدنيا إلى الآخرة، من الحياة إلى الموت، هل هناك ساعة في الدنيا أرهب من هذه؟! هل هناك ساعة في الدنيا أشد حرجًا وأكثر شغلًا منها؟! كلا.

فما بالك بأناسٍ في هذه (الساعة وفي هذه اللحظة) يتذاكرون العلم، ويقيدون الفوائد، ويحرصون على ذلك كلِّه.

ولما سُئِل الإمام أحمد: إلى متى تطلب العلم؟ قال: من المحبرة إلى المقبرة. فإليك ما وجدنا من خبرهم في ذلك وهمتهم العالية في طلب العلم في ترجمة إبراهيم بن الجراح التميمي مولاهم -تلميذ أبي يوسف وآخر من روى عنه- قال: ((أتيته أعوده، فوجدته مغمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا

إبراهيم! أيُّهما أفضل في رمي الجمار، أن يَرْميَها الرجلُ راجلًا أو راكبًا؟ فقلت: راكبًا. فقال: أخطأتَ!. قلتُ: ماشيًا. قال: أخطأتَ!.

قلت: قل فيها -يرضى الله عنك-. قال: أما ما يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه راجلًا، وأما ما كان لا يوقف عنده، فالأفضل أن يرميه راكبًا. ثم قمت من عنده، فما بلغتُ بابَ داره حتى سمعتُ الصُّرَاخَ عليه، وإذا هو قد مات -رحمه الله تعالى-)).

خبر أبي زُرْعة الرازي:

قال ابنُ أبي حاتم في ((تقدمة الجرح والتعديل)) سمعتُ أبي يقول: مات أبو زُرعة مطعونًا مبطونًا يعرق جبينُه في النزع، فقلت لمحمد بن مسلم (ابن وَارَة): ما تحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ بن جبل.

فمن قبلِ أن يَسْتتم رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرَّة، عن معاذ عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخلَ الجنة)). فصار البيت ضجَّة ببكاءِ من حضرَ.

خبر أبي حاتم الرازي:

قال ابنه عبدالرحمن في ((تقدمة الجرح والتعديل)): حضرتُ أبي -رحمه الله- وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عُقبة بن عبدالغافر، يروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلتُ: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي.

خبر ابن جرير الطبري:

قال المعافى النَّهْرَواني في ((الجليس الصالح)): ((وحكى لي بعض بني الفرات، عن رجلٍ منهم أو من غيرهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري -رحمه الله- قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها، فذُكِرَ له هذا الدعاءعن جعفر بن محمد وهو قوله: ((يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحمًا بعد الموت...)) ثم يدعو بمسألته.

فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبها، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلمِ حتى يموت)) اهـ.

خبر ابن مالك صاحب الألفية:

وفي كتاب ((الفَلاَكة والمفلوكون)) للدَّلَجي في ترجمة الإمام أبي عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك النحوي العلامة، قال: ((كان كثير الإشْغَال والاشتغال، حتى أنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد!!)).

خبر ابن الجوزي (٥٩٧):

وهذا العلامة المتفنِّن، صاحب التصانيف، أبو الفرج ابن الجوزي يقرأ في آخر عمره وهو في (الثمانين) القراءات العشر على ابن الباقلاني، مع ابنه يوسف.

قال الذهبي -معلِّقًا-: ((فانظر إلى هذه الهمة العالية!)) اهـ.

حِرْص العلماء وشغفهم بالكتب، قراءةً وتحصيلًا:

لقد أبدأ العلماء وأعادوا في بيان قيمة كتب العلم، وعظيم أثرها، وجلالة موقعها، ولهم في ذلك عبارات مشهورة نثرًا وشعرًا، نجد كثيرًا الكتاب فاخترتُ بضع كلماتٍ أُراهِا من أحسنِ ما قيل:

قال الجاحظ في ((كتابه الحيوان)): ((من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عُشَّاق القِيان، والمسْتهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًّا، وليس ينتفع بانفاقه حتى يُؤْثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابيّ فرسَه باللبن على عِياله، وحتى يُؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسِه)).

وذكر الإمام أبو محمد بن حزم في ((رسالة مراتب العلوم))دَعَائِمَ العلم، فعدَّ منها ((الاستكثارُ من الكتب، فلن يخلوَ كتابٌ من فائدة وزيادة علمٍ يجدَها فيه إذا احتاجَ إليه،

ولع شيخ الإسلام ابن تيمية (بالمطالعة، وشغفه بالبحث

قال الحافظ ابن عبدالهادي تلميذه- في ((مختصر طبقات علماء الحديث)) -وذكر طرفًا من صفاته-: ((لا تكاد نفسُه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تملُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقَلَّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذَّاق أهله)).

قراءة شيخ الإسلام ابن تيمية وهو مريض:

قال الإمام ابن القيم في ((روضة المحبّين)): وحدَّثني شيخنا -يعني ابنَ تيمية- قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت وقَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرضَ؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعةُ فأجدُ راحةً، فقال: هذا خارجٌ عن

علاجنا...)).

قراءة ابن الجوزي (٢٠ ألف) مجلدًا وهو بَعْدُ في الطلب:

قال ابن الجوزي عن نفسِه في ((صيد الخاطر)):-أثناء حديثه عن المطالعة والاكثار منها-: ((وإني أُخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعتُ على كنز.

ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُمَيدي، وكتب شيخنا عبدالوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب -وكانت أحمالًا- وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلب)).

وهذا ابنُ الجوزي -أيضًا- يوصي العالمَ وطالبَ العلم بقوله: ((ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك)) اهـ.

حرص ابن عقيل على الوقت وشغله بالمطالعة والعلم:

ذكر ابن رجب الحنبلي في ((الذيل على طبقات الحنابلة))في ترجمة ابنِ عقيل الحنبلي، عن ابنِ الجوزي أنه قال عنه: ((كان دائم التشاغُل بالعلم، حتى إني رأيتُ بخَطِّه: إني لا يحلّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مُطالعة، أعملتُ فِكري في حالة راحتي وأنا مُسْتَطرِحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجد من حِرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة)) اهـ.

ونقلَ ابنُ رجب من ((الفنون)) لابن عقيل أنه قال عن نفسِه: ((أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سفَّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفّرًا على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه)) اهـ.

ذكر الذهبي في ((تذكرة الحفّاظ)) عن ابن طاهر المقدسي أنه قال: بُلْتُ الدمَ في طلب الحديث مرتين، مرَّةً ببغداد، ومرة بمكة. كنتُ أمشي حفيًا في الحرِّ فلحقني ذلك، وما ركبتُ دابَّة قط في طلب الحدث، وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سألتُ في حال الطلبِ أحدًا، كنتُ أعِيشُ على ما يأتي)) اهـ.

وذكر الذهبي -أيضًا- في ((التذكرة)) عن الدغولي أنه قال: ((أربعُ مجلَّداتٍ لا تُفارقني سفرًا وحضرًا، كتاب المزَني، وكتاب العَيْن، والتاريخ للبخاري، وكليلة ودِمْنة)).

وفي ترجمة الإمام الحافظ الحسن بن أحمد الهَمَذاني في ((الذيل على طبقات الحنابلة)) عن تلميذه

الحافظ عبدالقادر الرُّهاوي أنه قال عنه: ((وكان عفيفًا من حبِّ المال، مهينًا له، باع جميعَ ما ورثه -وكان من أبناء التُّجار- فأنفقَه في طلب العلمِ، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرَّات ماشيًا يحمل كتبه على ظهره)) اهـ.

أربعون عامًا لا ينام إلا والكتاب على صدره

قال الجاحظ في ((الحيوان))(١): ((سمعتُ الحسن اللؤلؤي(يقول: غَبَرَتْ أربعين عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتكأتُ إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري)).

إذا غلبَه النومُ أمسكَ كتابًا ليطرده:

((قال ابن الجَهْم: إذا غشيني النُّعاس في غير وقت نومٍ -وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة- قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتابًا من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظَّفَر ببعض الحاجة، والذي يَغْشى قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبيين أشدَّ إيقاظًا من نهيق الحمير وهَدَّة الهَدْمِ)).

ضَعُفَ بصرُه من كثرة المطالعة:

وفي ترجمة الحافظ عبدالغني المقدسي صاحب ((الكمال))(من كتاب ((ذيل الروضتين)) لأبي شامة المقدسي قال: ((وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء، وكان أوحدَ زمانه في علم الحديث)) اهـ.

لا يمشي إلا وفي يده كتاب:

وكان كثير من مشاهير العلماء لا يمشي إلا وفي يده كتب أو أجزاء يُطالعها، وذلك لمزيد شغفهم بالقراءة والاطلاع، وعظيم حرصهم على أوقاتهم من الضياع.

قال الذهبي في ((السير))((قال ابنُ الآبنوسي: كان الحافظ الخطيب يمشي وفي يده جُزْءٌ يُطالعه)).

وفي ((تذكرة الحفاظ))(للذهبي في ترجمة أبي داود السجستاني صاحب ((السنن)): ((قال ابنُ دَاسَة: كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكمٌّ ضيّق، فقيل له في ذلك؟ فقال: الواسع للكتب، والآخر لا يُحتاج إليه)).

وفي ترجمة العلامة النحوي أحمد بن يحيى المعروف بثَعْلَب من كتاب ((وفيات الأعيان)) لابن خَلِّكان قال: ((كان سببَ وفاته: أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صَمَمٌ لا يسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق، فصدمَتْه فرسٌ، فألقَتْهُ في هُوَّةٍ، فأُخرج منها وهو كالمختلط، فحُمِل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوَّه مِن رأسه، فمات

ثاني يومٍ)) اهـ.

وذكر العسكري في ((الحث على طلب العلم)): أن أبا بكرٍ الخياط -العلامة النحوي محمد بن أحمد البغدادي كان يَدْرُسُ جميعَ أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربَّما سقَط في جُرْف أو خبطته دابَّة)).

وفي ((إنباء الغمر)) في ترجمة أسعد بن محمد بن محمود الشيرازي أنه قرأ ((صحيح البخاري)) على شمس الدين الكرماني أكثر من عشرين مرَّة.

وفي ترجمة البرهان الحلبي في ((الضوء اللامع)): أنه قرأ البخاريَّ أكثر من ستين مرة، ومسلمًا نحو العشرين، سوى قراءته لهما في الطلب، أو قراءتهما من غيره عليه.

قال الكتاني في ((فهرس الفهارس)): ((وجدت في ثَبَت الشهاب أحمد بن قاسم البوني: رأيتُ خطَّ الفيروزآبادي في آخر جزءٍ من صحيح الإمام البخاري قال: إنه قرأ صحيح البخاري أزيدَ من خمسين مرَّة)) اهـ.

تنبيهات مهمة لطالب العلم:

الأول: ما هي العلوم التي ينبغي التبحُّر فيها؟

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: ((فالذي يتعيَّن على المسلم الاعتناءُ به والاهتمامُ: أن يبحثَ عمَّا جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يجتهد في فهم ذلك، والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العِلْمية. وإن كان من الأمور العَمَلية، بذلَ وُسْعَه في الاجتهاد في فِعْل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همته مصروفة بالكُلِّية إلى ذلك، لا إلى غيره.

وهكذا كان حالُ أصحاب النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - والتابعين لهم بإحسان في طلبِ العلم النافع من الكتاب والسنة)) اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله في بيان المراد من العلم المطلوب التزود منه-: ((هو] الذي يفيد معرفةَ ما يجب على المكلَّف من أمر عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه)) اهـ.

وعلى هذا النحو تدور عبارات الأئمة في بيان العلم النافع الذي ينبغي التبحُّر فيه، والحرص عليه، والاستكثار منه، فلا نطيل بنقل نصوصهم.

الثاني: الموازنة بين قراءة الكتب والأخذ عن الشيوخ

أَخْذ العلم له طريقان:

أحدهما طريق المشافهة: وهو أخذه عن أهله العلماء به، وهذا هو الأصل الأصيل في تَلَقِّي العلوم، وهذه طريقة السلف، قبل تدوين الكتب وبعدها، وليس هنا مجال الحديث عن هذه الطريقة.

الثانية أخذه عن الكتب والمصنفات: وهي دواوين العلم وخزائنه. وهاهنا يُنبَّه إلى أمور:

لابُد من الموازنة والمزاوجة بين أخذ العلم من الكتب وأخذه من العلماء، فإن العلم وإن كان مؤدعًا في بطون الكتب، إلا أن مفاتِحَهُ بأيدي الرجال، كما في المقولة المشهورة.

الثالث التعرف على أنواع القراءة:

من المفيد أن يتعرَّف الطالبُ على أنواع القراءة، ويُنمِّي قُدُراته ليكتسب المزيد من مهارات القراءة، وفي ذلك بحوثٌ ودراسات كثيرة، ولكن ننبّه هنا إلى أمور:

١ ـ لابد أوَّلًا من النظر في نوعية الكتاب المقروء، فليس كلُّ كتابٍ أستطيع أن أُطبِّق عليه قواعد القراءة السريعة، فمثلًا كتب الفقه أو الأصول أو المصطلح لابدّ من قراءتها قراءةً متأنِّيَة، ليتمكن القارىء من استيعابها وفهمها، فالقراءة هنا قراءة دَرْسٍ وفهم.

٢ ـ إذا تمكّن الطالبُ من فنٍّ ما، وأَلَمَّ بجمهور مسائله واصطلاحاته، فلا حرج عليه حينئذٍ في قراءة ما يستجد له من كتب الفن قراءةً سريعة، يلتقط فيها ما يجدّ له من مباحث وفوائد وغير ذلك، فتختلف القراءة من شخصٍ إلى آخر بحسب التمكّن من الفن والمعرفة به، فليست قراءة المتخصِّص في الفقه لكتاب ((المغني)) مثلًا كقراءة غير المختصّ، وهكذا.

٣ ـ كتب التاريخ والأدب والسير والتراجم والموسوعات الضخمة، وكتب المعارف العامة هذا الصنف من الكتب هو مادة الجَرْد، وموضوع القراءة السريعة، فيستطيع الطالب المجِد أن يأتيَ على أكثر هذه الكتب مُطالعةً.

الرابع: تقييد الفوائد وكتابتها:

إذا انخرط الطالبُ في سِلْك القُرَّاء وانضم إلى ناديهم، فلا بُدَّ له من استثمار قراءته وتوظيفها، ليجنيَ منها ما تمنَّى، ولا يضيع تعبه سدى، ولا طريقة أنفع ولا أنجع لتحقيق ذلك من الكتابة والتقييد. فيقيد الفائدة المستجادة، والنقل العزيز، والتحرير المدَلَّل، والترتيب المبتكر، وطرائف النقول والحِكَم.

قال الإمام النووي وهو يرشد الطالب إلى تعليق النفائس والغرائب مما يراه في المطالعة أو يسمعه من شيخه-: ((ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أيِّ فنٍّ كانت، بل يُبادِر إلى كتابتها، ثم يواظب على مطالعة ما كتبه...)) اهـ.

وقال أيضًا-: ((ولا يؤخِّر تحصيل فائدة -وإن قَلَّت- إذا تمكَّن منها، وإنْ أمِنَ حصولها بعد ساعة، لأن للتأخيرِ آفاتٌ، ولأنه في الزمن الثاني يُحَصِّل غيرَها)) اهـ.

فهذه نصيحة غالية، ولَفْتَةٌ من إمام، فتمسَّك بها تُفْلِح.

فكم من عالمٍ أبدى أسَفَه وحَسْرَته على فوائد فاته تقييدُها فشردت، أو اتكل على حافظته فخانته (والحفظ خوَّان)، فهذا الإمام ابنُ حجر (حافظ عصره) فاتَه تقييدُ شيءٍ من الفوائد فتأسَّف عليه، قال تلميذه السخاوي في ((الجواهر والدرر))(٣): ((أما التفسير، فكان فيه آيةٌ من آيات الله تعالى، بحيث كان يُظْهِر التأسُّفَ في إهمال تقييد ما يقع له من ذلك مما لا يكون منقولًا... وفي أواخر الأمر صار بعض طلبته يعتني بكتابة ذلك)).

وصدق القائل: ((وكم حَسَراتٍ في بطونِ المقابرِ)).

وهذا الإمام الشافعي يحكي عنه صاحبُه الحُمَيْديُّ -لما كانا بمصر- أنه كان يخرج في بعض الليالي فإذا مصباح منزل الشافعي مُسْرِج، فيصعد إليه ((فإذا قِرْطاس ودَوَاة، فأقول: مَهْ يا أبا عبدالله! فيقول: تفكّرت في معنى حديث -أو في مسألة- فخِفْت أن يذهب عَلَيَّ، فأمرت بالمصباح وكتبته)).

الخامس - إحضار العدة اللازمة لطلب العلم من الأقلام والأوراق والكتب وما يستلزم إثناء طلب العلم.

هذا جهد يسير جمعت فيه ما سبق ليستفيد منه طلبة العلم وخاصة المبتدئين وأنهيت جمعه مساء الأحد ١١ رجب ١٤٣٠ هـ الموافق ٥/٧ ٢٠٠٩ م جمعه الفقير الى ربه الشيخ عبد السلام حمود الانسي.

والحمد لله رب العالمين.

المراجع:

١- المجموع للنووي.
٢- المشوق إلى القراءة وطلب العلم لعلي العمران.
٣- الاجتهاد في طلب الجهاد لعماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي.
٤- طالب العلم والبحث للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.